كيدروف

المنطق الشكلي والمنطق الدياكتي

تعريب: محمّد عيتاني
سهيل يموت

مكتبة النهضة - بغداد

كِيدروف

المنطق الشكلي والمنطق الديالكتيكي

مكتبة النهضة بغداد

في غرض المنطق

للمنطق الشكلي تعريف ذائع جدا :المنطق هو علم قوانين اسلوب التفكير **الصحيح**، وأشكاله . ولكن تعابير « اسلوب التفكير الصحيح » هنا ليست واضحة ، اذ يمكن فهمها على وجهين : **اولا :** يمكن فهمها بمعنى « التفكير الامين » يعني ذلك الذي يعكس الواقع الموضوعي بامانة ، والذي يفضي، بالتالي ، الى اكتشاف الحقيقة .

ويمكن فهمها **ثانيا :** بمعنى التفكير الصحيح في شكله، يعني المطابق لقواعد منطقية محددة . وهذه المسألة هي موضوع المنطق . كتب لينين في تعريفه للمنطق ، وللمنطق الديالكتي خاصة :

« المنطق ليس علم النفس . وليس هو علم ظاهرات الذهن [يعني مجرد وصف لشكل الفكر ـ كيدروف] المنطق يساوي : مسألة الحقيقة » (١)

وهكذا فهدف المنطق ، حسب رأي لينين ،هو قضية الحقيقة: **المنطق هو علم قوانين الفكر واشكاله ، التي تقود الى معرفة الحقيقة** . المنطق من حيث طبيعته نفسها ، هو علم فلسفي ،ذلك أنه يدرس مسألة هي بالضبط مسألة فلسفية ، وهي مسألة

(١) لينين ـ الدفاتر الفلسفية « الطبعة الروسية » ١٩٤٩ ؛ ص ١٥٠

التوافق بين فكرنا ، والواقع الموضوعي. والقول باستقلال المنطق عن الفلسفة ، أو القول بأن المنطق ليس علما فلسفيا ، انما معناه الاقرار بأن مسألة الحقيقة ومعرفتها ليست غرضا من اغراض المنطق وليست كذلك مسألة فلسفية .

ولا يصح هذا فيما يتعلق بالمنطق الديالكتي الماركسي وحسب ، بل يصح أيضا ، بصورة جزئية ، فيما يتعلق بالمنطق الشكلي ؛ ولكن هذا الاخير لا يصح فيه ذلك الا بمقدار مايعنى هو ، على نحو بدائي ، بمسألة الحقيقة ، وباكتساب معارف جديدة ، وبالانتقال من الجهل الى المعرفة . ولقد أشار انجلس الى أنه لايمكن اعتبار المنطق الشكلي مجرد أداة للبرهان الا على أساس فهم محدود ، وبالتالي ، خاطيء . يقول انجلس :

«والمنطق الشكلي نفسه ، هو – قبل أن يكون اي شي آخر – طريقة تستخدم للحصول على نتائج جديدة،وللتقدم التدريجي من المعلوم الى المجهول ؛ وهذا صحيح أيضا فيما يتعلق بالديالكتيك ، ولكن على مستوى ارفع كثيرا » (١)

ان البحث عن نتائج جديدة ، والانتقال من المجهول الى المعلوم ، معناه اكتساب معارف جديدة لها أهمية الحقائق الموضوعية . فالمنطق الشكلي ، بالتالي ، مندرج في التعريف العام للمنطق ، الوارد آنفا .

ومسألة الحقيقة – كما هو معروف – انما هي مسألة أساسية في كل علم . فالكيمياء تبحث وتكتشف البنية الحقيقية

(١) انجلس – ضد دوهرنغ – المنشورات الاجتماعية ، ١٩٥٠ ص ١٦٥ .

للمادة ، وتركيبها ، وخصائصها الخ ... وذلك بدراسة حقل معين من حقول الطبيعة . وبالتالي ، فهي تدرس وسائل البحث الخاصة ، التي تتيح اكتشاف الحقيقة في حقل معين ، وفي حقل معين ، وحسب ، من حقول المعرفة .

أما المنطق، فهو يطرح من جهته المسألة العامة ، النهاجية، وبالتالي الفلسفية ، ماذا يجب أن تكون ، بالمعنى العام، وسيلة معرفة الشيء ، تلك التي تتيح اكتشاف الحقيقة ـ سواء أكنا ندرس قوام المادة ، أو الاجرام السماوية ، والاحداث البيولوجية أوالسيكولوجية ؟وهذا مايميز منطق العلوم الخاصة. وفي حين كان يجب على العلوم الخاصة أن تستقل عن فلسفة كانت في السابق وحيدة ، غير مجزأة ، لا يستطيع المنطق ، بسبب طبيعته ، أن يستقل عن الفلسفة ، وهو العلم الذي يساوي ما لمضمون الفلسفة كلها من شمول ، ويستخدم منهجا في جميع حقول المعرفة . ان الفكر الفلسفي يتطلب فكرا منطقيا صارما، صالحا للعمل بوساطة المفاهيم . فكيف يستطاع فرز المنطق من الفلسفة ـ وهو الذي يساعد على اكتساب هذه الصلاحية ، ويساعد هكذا على صياغة فكر فلسفي فعال ـ هذه الفلسفة التي يؤلف المنطق جزءاً منها ؟

ويشير انجلس مؤكدا

« لم يتبق الآن من الفلسفة القديمة كلها ، في وضعها المستقل الا مذهب الفكر وقوانينه ، المنطق الشكلي والديالكتيك . أما الباقي كله فيتحل في العلم الوضعي للطبيعة والتاريخ » (١)

(١) انجلس ـ المرجع ذاته ـ ص ٥٧

هذه القضية التي وضعها انجلس ، والتي أكد لينين صحتها فيما بعد ، لم تهرم ؛ ذلك لأنه لم يحدث أي تغير جوهري ، في هذا الحقل ، منذ عهد انجلس ولينين .

ولكن،بما أن المنطق يضع ويحل بالضبط المسألةالفلسفية لاكتشاف الحقيقة ـ يعني القوانين التي يجب أن يخضع لها الفكر ، وما عليه أن يتخذ من أشكال ، لايصالنا الى نتائج حقيقية ـ لهذا السبب يرتبط المنطق ارتباطا لاينفصم بنظرية المعرفة ؛وهذا يعني أن المنطق قد يكون ماديا أو مثاليا ، حسب اسلوبه في حل هذه المسألة الاساسية . ان تاريخ الفلسفة ، وخصوصا تاريخ المنطق ، يؤكد هذا ،بعدد من الأمثلةلايحصى.

ان الطابع الفلسفي للمنطق ،بوصفه علم الفكر المؤدي الى الحقيقة ، ليس أبدا في تناقض مع كون قوانين الفكر نفسها ، لها صفة مشتركة بين جميع الناس ، بمعزل عن الطبقات .

فاذا كانت اللغة ، عند أفراد أمة معينة من الامم ،وبصورة عامة ، عند جميع الذين يعرفون هذه اللغة نفسها ، هي وسيلة الاتصال مباشرة فيما بينهم ، فان مراعاة القوانين الأوليةللمنطق هي الأساس والشرط لتفاهم متبادل بين جميع الناس . فخرق قواعد المنطق الأولية ، انما معناه جعل كل تفاهم بين الناس مستحيلا ،ومعناه العمل على اضمحلال الفكر.ولكن، مع كون أبسط قواعد الفكر ، أي ما يسمى « بالقوانين الأساسية»للمنطق الشكلي ، هي خاصة بكل فكر بشري ، يعني أنها مشتركة

بين جميع البشر ، فان تأويلها قد يكون رغم ذلك اما ماديا أو مثاليا .

وبالتالي ، فثمة في المنطق ، حتى في المنطق الشكلي ، كما في كل فلسفة ، اتجاهان متعارضان مباشرة: الاتجاه المادي، والاتجاه المثالي : وهما يحلان ، بصورة مختلفة ، المسألة الاساسية للمنطق : مسألة الحقيقة . ان نزع القشور المثالية عن المنطق الشكلي ، لهو أحد « التصحيحات » التي قال بها لينين .

وثمة من يفكرون بأن المنطق الشكلي لا يدرس غير أشكال الفكر ـ ومن هنا اكتسب اسمه ـ في حين أن المنطق الديالكتي يدرس مضمون الفكر نفسه . هذا الرأي خاطىء . ذلك أن المنطق الديالكتي لا يدرس المضمون وحسب ، وانما يدرس أيضا أشكال الفكر .

لقد أشار انجلس مؤكدا ، في كلامه عن أهداف الديالكتيك أن:

« دراسة أشكال الفكر ، دراسة المقولات المنطقية ، هي مفيدة جدا وضرورية » (١)

وأشكال الفكر الاساسية نفسها : المفهوم ، والحكم ، والاستنتاج ، انما يدرسها ـ على حد سواء ـ المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي . انها تمثل الاشكال المنطقية التي يتلبسها الفكر عند انطلاقه لاكتشاف الحقيقة ، والتي تتحدد فيها النتائج التي يحصل عليها الفكر .

---

(١) انجلس ـ ديالكتيكية الطبيعة ـ المنشورات الاجتماعية ـ ١٩٥٢ ـ ص ٢٤٣

هذا هو الشيء المشترك بين المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي: وهذه الوحدة في هدف البحث ، تستبعد كل امكان للكلام عن منطقين منفصلين غير متلائمين في المبدأ ، ومتنافيين . ولكن ثمة درجات مختلفة في المنطق : الدرجة الدنيا ، يعني المنطق الشكلي ، والدرجة العليا ، يعني المنطق الديالكتي .

والاعتراف بدرجات مختلفة في المنطق، لا يعني الاقرار بأن المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي لا يؤلفان سوى منطق واحد، ولا يعني أنهما يندمجان ؟ انهما يتمايزان بأسلوب مواجهتهما الشيء ، وبدرجة المعرفة التي يعطيانها عنه .

طريقتنا المنطق، ومميزاتها

نفهم بكلمة «المنطق الشكلي» المنطق الذي يرتكز فقط على قوانين الفكر الاربعة (الهويـــة ، والتناقض ، والعكس والبرهـان) والذي يقف عند هذا الحد . أما المنطق الديالكتي فنحن نعتبر أنه علم الفكر الذي يرتكز على الطريقة الماركسية، المميزة بهذه الخطوط الاساسية الأربعة : الاقرار بالترابط العام، وبحركة التطور ، وبقفزات التطور ، وبتناقضات التطور .

ان الفرق بين المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي ينحصـر في واقع أنهما يواجهان ، بصورة مختلفة ، المسألة الاساسيـــة للمنطق: وهي مسألة الحقيقة، فمن وجهة نظر المنطق الديالكتي، ليست الحقيقة شيئا معطى مرة واحدة لاغير ، ليست شيئا مكتملا، محددا ، مجمدا ، ساكنا ؛ بل الأمر خلاف ذلك . فالحقيقة هي عملية نمو معرفة الانسان للعالم الموضوعي خلال كل تاريـــخ المجتمع . وكما يقول لينين :

« الحقيقة هي عملية نمو . فالانسان يذهب من الفكرة الذاتية الى الحقيقة الموضوعية ، مارا بالنشاط العملي (وبالتقنية)(١)».

ويقول أيضا عن المنطق الديالكتي :

(١) لينين ـ الدفاتر الفلسفية ، ص ١٧٤

« المنطق هو نظام المعرفة ، انه نظرية المعرفة . المعرفة هـــي انعكاس الطبيعة في ذهن الانسان . ولكنها ليست انعكاســـا بسيطا ، مباشرا ، كليا.انها حركة نمو سلسلة من التجريدات وتكون مفاهيم وقوانين ، الخ ... ان الانسان لا يستطيع أن يحيط ـ يعني ان يعكس ـ لا يستطيع أن يدرك الطبيعة كلها، على نحو كامل، في شمولها المباشر !انه لايستطيع سوى الاقتراب منها ، اقترابا مستمرا ،بخلق التجريدات ، والمفاهيم والقوانين، وبخلق مشهد علمي للعالم ، الخ ... » (١)

وفي صفحات تالية يقول :

« ان توافق الفكر والشيء هو حركة تطورية . ويجـــب أن لا يتصور الفكر (يعني الانسان) الحقيقة في شكل مجرد مشهد (صورة) شاحبة (باهتة) بدون حركة ... ان المعرفة هـــي الاقتراب اللا متناهي ، الابدي ، للفكر نحو الشيء . يجب فهم انعكاس الطبيعة في فكر الانســـــان ، « ليس كشيء « جامد » « مجرد » ، **بدون حركة**، بدون تناقضات ، وانما كعملية تطور أبدية للحركة ، لولادة التناقضات وحل هذه التناقضات.»(٢)

عبر لينين عن هذا المفهوم للحقيقة ، بوصفها حركة نمـــو تطورية ، بهذه الصيغة الحاسمة :

« من التأمل الخلاق الحي ، الى الفكر المجرد ، ومن هذا الـــى النشاط العملي : هذا هو الاسلوب الديالكتي لمعرفة الحقيقة ، لمعرفة الواقع الموضوعي . » (٣)

---

(١) لينين ـ المرجع ذاته ـ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ،

(٢) المرجع ذاته ـ ص ١٦٧ـ ١٦٨ .

(٣) المرجع ذاته ـ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

أن تكون لدينا وجهة نظر تاريخية عن الحقيقة ـ أي:عن المعرفة نفسها ـ انما معناه الاقرار بوحدة نظريــــة المعرفة ، والديالكتيك ، والمنطق ، في الفلسفة الماركسية ، والاقرار بعدم تجزئها . ولقد ذكر لينـــين في كلامه عن المنطق في كتــاب « رأس المال » ، أن ماركس قد طبق على الاقتصاد السياسي:

« المنطق ، والديالكتيك ، والنظرية المادية للمعرفة ... »

وأوضح بدقة :

« ولا تلزم هنا ثلاث كلمات : انه شيء واحد ، لا غير .» (١)

ان المنطق الديالكتي الماركسي هو ، بحق ، مشيد علـــى هذه الوحدة المؤلفة من المنطق ، والديالكتيك ، والنظريةالمادية للمعرفة . ويشير لينين الى أن الديالكتيك ،في مفهوم ماركس :

« يتضمن ما يسمى اليوم نظرية المعرفة ، التي عليها أنتتناول موضوعها من وجهة نظر تاريخية أيضا ، بدراسة أصل المعرفة، وتطورها ، وتعميم هذه الدراسة ، يعني الانتقال من الجهل الى المعرفــة . » (٢)

يشير لينين ، مجددا ، في مؤلفه « المادية ومذهب النقــد التجريبي » الى هذه القضية ، وهي أنالحقيقة هي عملية نمو تطوريــة :

« من المهم ، في نظرية المعرفة،كما في جميع حقول العلم الاخرى، أن يكون التفكير دائما ديالكتيكيا ، أي أن لايفــرض مطلقــا كون وعينا ثابتا ، لا يتطور ، وانما المهم تحليل حركـــــة

---

(١) المرجع ذاته ـ ص ٢١٥ .

(٢) لينين : « ماركس ، انجلس ، ماركسية . » المنشورات الاجتماعية الاممية ، ص ٢٠ ، (عام ١٩٣٥) .

التطور التي بفضلها تولد المعرفة من الجهل ، أو التي بفضلها تصبح المعرفة المبهمة والناقصة ، أكثر انطباقا وأكثر دقة» (١)

ان مفهوم الحقيقة بوصفها حركة تطور قد عبر عنه بصورة رائعة فريدة في نظرية الديالكتيك الماركسي عن الترابط القائم بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة .

وكان لينين يقول : ان وضع مسألة الترابط بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية يعود لطرح المسألة التالية :

« هل تستطيع التصورات البشرية المعبرة عن الحقيقة الموضوعية ان تعبر عنها دفعة واحدة ، من كليتها ، بدون شرط ، وعلى نحو مطلق ، أم انها لا تستطيع التعبير عنها الا بصورة تقريبية، نسبية » (٢)

وكتب لينين بعدئذ :

« يرى انجلس ان الحقيقة المطلقة هي نتيجة الحقائق النسبية»
والحقيقة المطلقة **الناتجة** من حقائق نسبية هي حركة تطور تاريخية ، هي حركة المعرفة .

ولهذا السبب بالضبط ، يتناول المنطق الديالكتي الماركسي الشيء الذي يدرسه ، **من وجهة نظر تاريخية** ، من حيث هو عملية نمو تطورية . انه يطابق التاريخ العام للمعرفة ، يطابق تاريخ العلوم ؛ ولينين اذ يبين ـ في الوقت نفسه ـ باستخدامه

---

(١) لينين ـ المادية ومذهب النقد التجريبي ـ المنشورات الاجتماعية ـ ١٩٤٨ ـ ص ٨٥ ـ ٨٦ .

(٢) المرجع ذاته ـ ص ١٠٤ .

مثل العلـــوم الطبيعية ، والاقتصـــاد السياسي والتاريخ ، أن الديالكتيك يستمد استنتاجاته العامة من تاريخ الفكر ، يؤكد :

« أن على تاريخ الفكر ـ في المنطق ـ أن يطابق جزئيا وكليا ، قوانين الفكر ٠ » (١)

وأشار جدانوف الى الاهمية البالغة التي تحتفظ بها هذه القضاياالليننية ، وذكر بما كان يشير اليه لينين:

« يجب اعتبار كل مقولة من مقولات المنطق الديالكتي عقـــدة حاسمة في تاريخ الفكر البشري ٠٠٠ » (٢)

وينتج عن هذا أن وجهة النظر التاريخية في تفسير الحقيقة، من حيث انها موضوع للمنطق ، هي أحد المقتضيات الاساسيـة للمنطق الديالكتي الماركسي .

وفي نتيجة ذلك يشير لينين :

« يقضي المنطق الديالكتي أن يؤخذ الشيء في تطوره ،في نماله ، في تغـيره » (٣)

وخلافا للمنطق الديالكتي ، يعمد المنطق الشكلي الى حل مسألة الحقيقة حلا أوليا الى أبعد حد ، بواسطة صيغة«نعم ـ لا»: انه يعلم الاجابة بكلمة واحدة ، وبصورة قاطعة ، على السؤال: « هل الظاهرة تلك ، موجودة أم لا ؟ »والاجابة مثلا بـ « نعم »

---

(١) لينين ـ الدفاتر الفلسفية ـ ص ٢١٤ ٠

(٢) مسائل الفلسفة ـ العدد الاول ـ ١٩٤٧ ـ ص ٢٦٠ ٠

(٣) لينين ـ المؤلفات(الطبعة الروسية)المجلد الثاني والثلاثون ـ ص ٠٧٢

على السؤال: هل الشمس موجودة ؟ وب «لا» على السؤال: «هل الدائرة المربعة موجودة ؟» . في المنطق الشكلي ، يقف الانسان عند حد اجابات بسيطة جدا « نعم » أو « لا » أي عند حد تمييز نهائي بين الحقيقة والخطأ . لهذا السبب تواجه الحقيقة باعتبارها شيئا معطى ، ساكنا ، ثابتا ، نهائيا ، ومتعارضا تعارضا مطلقا مع الخطأ .

وهذا ما يعين الطابع الاولي لطرائق المنطق الشكلي . والواقع ان الحقائق من هذا النوع (الحقائق الثابتة) لاتصادف الا في حالة ملحوظات عادية ، مجردة من الأهمية الكبرى ، فيما يختص بالمعرفة ، في حالة سطحيات كما كان يقول انجلس :

فالحكم عن تاريخ وفاة نابليون ، الذي يورده انجلس ، هو مثال لهذه الحقيقة الابدية ، الثابتة ، المطلقة : هذا المثل يأخذ به لينين فيكتب رداً على بوغدانوف :

« ــ توفي نابليون في ٥ نوار ١٨٢١ ــ هذه قضية صحيحة نقر بصحتها ما دمنا غير قادرين على تأكيد عدم دقتها او غلطها ، وما دمنا غير قادرين على دحضها فيما بعد . فنحن نعترف بأبدية هذه الحقيقة ... ان المثل الذي اختاره انجلس هو في منتهى البساطة ، ويستطيع كل انسان ان يجد بسهولة طائفة كبرى من هذه الحقائق الابدية والمطلقة ، التي لا يسمح بالشك فيها الا للمجانين (كما يقول انجلس الذي يقدم أيضا هذا المثال « باريس في فرنسة ») . لماذا يتحدث انجلس هنا عن السطحيات؟ لانه يدحض المادية الجامدة والمذهب الغيبي ، ويهزأ بهما ، يعني بدوهرنغ ، العاجز عن تطبيق الديالكتيك على العلاقات بين

الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة .... كان دوهرنغ ، في صدد أكثر المسائل تعقيدا ، ومسائل العلم عامة ، والعلم التاريخي خاصة ، كان يسرف في نثر هذه الكلمات يسرة ويمنة : الحقيقة الاخيرة ، النهائية ، الابدية . ولقد تهكم به انجلس لهذاالسبب واجابه : مؤكد أن الحقائق الابدية موجودة ، ولكـــن ليس من الذكاء استعمال كلمات طنانة لاشياء بسيطة جدا » (١)

يعمل المنطق الشكلي عمله ، بالضبط ، بوساطة علاقات أولية وأشياء بسيطةفهو لايعتبر فكرنا وأشكاله المنطقيةالابمقدار ما يستطاع اعتبارها أشياء ثابتة ، لامتحركة؛«فالقوانينالاساسية» للفكر ، وخصوصا قانونالهوية (ا هي ا) انما هي معدة كي تدرك ـ من تعدد ومن تعقد المعرفة البشرية التي هي في حالــة تطور ـ الأجزاء التي يمكنفيحدودها لموضوع الفكر **او الفكر** المختص بالموضوع ، أن يعتبر ساكنا نسبيا ، مماثلا لذاته ، يعني أيضا جامدا . فالأحكام التي هي من نوع : « توفي نابليون فـــي الخامس من نوار ١٨٢١ » ، انما تتصف حقا بهذا الجمود .بيد أن المنطق الشكلي ، مع وجود هذا الطابع الأولي الىأبعدحد ، يعمل جوهريا في فكر الانسان ، في الاتصال بين الناس ، فـــي التفاهم المتبادل .وفيالحدود ـ وفي هذهالحدود فقط ـالتييجب أن تبقى فيها أفكارنا مستقرة مماثلة لذاتها ، تكون مراعـــــاة « القوانين الاساسية»للمنطق الزاميـةلجميع الناس ،ومنجملتهم الديالكتيون الماركسيون . ولسوف يؤدي خرقهذه القوانين ، ضمن هذه الحدود ، الى تقهقر في الفكر ، ولسوف تنـزع منه

(١) المادية ومذهب النقد التجريبي ـ المنشورات الاجتماعية ـ ١٩٤٨ ـ ص ١١٣ ـ ١١٤ .

دقته ، وينزع كل أساس للتأكيدات الخ .. اذنفمراعاة قواعد المنطق الشكلي ، في الحدود الملائمة ، ليست على الاطلاق ضد الديالكتيك .

لنضرب لذلك مثلا:لنفترض أن مقررا يعالج مسألة معينة، محددة تمام التحديد ، يخرج عن موضوعه أثناء القاء تقريره فينتقل الى موضوع آخر . ولما كان الموضوع قد حدد اطار التقرير ، وكان عليه ، حسب قانون المنطق الشكلي (ا هي ا) أن يبقى ثابتا ، فالمقرر بانتقاله الى موضوع آخر ، قد خرق هذا القانون ، وجعل فكرته غامضة على السامعين . وأيا كان الديالكتيك الذي يستند اليه المحاضر فيتقريره ، فهو لايستطيع تبريرمثل هذا الاخفاق ، ومثل هذا التقصير في دقة التفكير ،ولا تبريرمثلهذه القفزة من موضوع الىآخر.فالديالكتيكهوالذي يتطلب ، بالحاح من مقرر يعالج موضوعا محددا أن يعرض حقا هذا الموضوع نفسه.دون الخروج عن الاطار المحدد له . ان خرق قانون الهوية من قبل المحاضر هو ضد الديالكتيك الماركسي ، ذلك لأن هذاالخرق يؤدي الى التشويش ،ويضلل السامعين ، ولا يسمح ببيان مضمون المسألة الموضوعة .

يبين هذا المثل **اولا** : أن مراعاة قواعد المنطق الشكلي (حيث تدعو الضرورة الى ذلك) هو شرط للفكر الديالكتي ؛ **ثانيا** : ان قوانين المنطق الشكلي نفسها ، وكذلك الامثلة التي تطبق عليها ،هي أولية، الى أبعد حد . فنسبة قواعد المنطق

الشكلي الى الفكر هي مثل نسبة جدول الضرب الى الرياضيات أو كنسبة قواعد الاملاء الى اللغة .

وانما تجب معرفتها،ومراعاتها، ويجب أن لاتخرق(حيث يمكن تطبيقها) ولكن ليس من الجدي المبالغة فيأهميتها وحصر حركة تطور الفكر كلها تقريبا في حدود مراعاة قوانينالمنطق الشكلي . على التلميذ ، في درجة التعليم الوسطى ، أنيدرس قواعد المنطق الشكلي ، تماما كما يدرس الحساب وعلمالصرف والنحو ؛ فدراستها تنشىءفي ذهن الطالب نوعا من الفعـــل المنعكس الشرطي : أن لايقع في التناقض ، أن لايقفز مـــن موضوع الى آخر .. الخ . يعني أن يعمد الى التفكير مثلمـــا يفعل جميعالناس ذويالتفكير السليم • وبدهي أننا لانحتاجالى ماركسية ، حين نريد أن نطبع في ذهن الطالب تفكيرا أوليـــا دقيقا ، سليما من التناقضات ، ذلك أن الامر هنا لايتعلقبمعرفة قواعد التطور الاجتماعي ولا بدراسة مفهوم ما،بلهو يتعلقفقط بتعليم الانسان أن يفكر تفكيرا أوليا سليما . وغنـي عن البيان أن الأمر سوف يدعو الى الأسف اذا كان هذا التفكير السليم ينقص الراشد وخصوصا الموجه الذي يصدر تعليمات الـــى مرؤوسيه ، ذلك لأن تعليماته في هذه الحال لن يفهمها حـــق الفهم اولئك الذين يتلقونها .

* * *

ان الطابع الأولي والمحدودللمنطق الشكلي يلائم ،حسب

رأي انجلس « للاستخدام العادي » و «التعامل العلمي البسيط » وانجلس يؤكد ، مع اعتباره مقولات المنطق الشكلي مقولات غيبية (نظرا لكونها تجهل الحركة ، وتجهل تغير أشكال الفكر) يؤكد أنه ، ضمن بعض الحدود (وحيث تدعو الضرورة) يمكن الانسان أن يستخدم بملء حقه المنطق الشكلي ، مع أن الاستخدام العام للديالكتيك هو ، في الدرجة الاخيرة ، الطريقة الوحيدة للتفكـير :

« لا شك في أن المقولات تحتفظ بقيمتها ، فيما يتعلق بالاستخدام اليومي وبالتعامل العلمي البسيط • » (١)

ان مقولات المنطق الشكلي ممكنة التطبيق في الحدود التي يمكن فيها اعتبار الاشياء أو الافكار المعنية بهذه الاشياء ، ثابتة نسبيـــا .

نعرف المقارنة الشهيرة التي أجراها انجلس ، من جهة ، بين المنطق الشكلي والرياضيات الأولية ، التي تعمل على أساس كميات ثابتة (لامتحركة) والعلاقات البسيطة ، ومن جهة أخرى بين المنطق الديالكتي والرياضيات العليا التي تعمل على أساس كميات متغيرة (متحركة) وعلاقات رياضية معقدة جدا . وكما أن الرياضيات العليا لا تحل محل الرياضيات الأولية ، كذلك الديالكتيك لا يسعه أن يحل محل المنطق الشكلي ، بل يفترض هذا الامر ، خلافا لذلك ، أن من الطبيعي استخدام المنطـــق الشكلي في كل موضع نستطيع أن نعبر فيه عن أغراض الفكر

(١) انجلس ـ ديالكتيكية الطبيعة ـ المنشورات الاجتماعية ، ص ٢١٤ .

بمقولات ثابتة مطابقة لقانون الهوية المجردة (ا هي ا)

عالج لينين هذه القضية التي وصفها انجلس وطبقها على حقل الحياة الاجتماعية ، على سياسة الحزب . فكتب :

« تشبه السياسة علم الجبر أكثر من شبهها الحساب أو اقل انها تشبه الرياضيات العليا أكثر من شبهها الرياضيات الاولية» (١)

وهذا يعني أن السياسة هي ديالكتية ، على نحو عميق ، وانه ينبغي معالجتها ليس انطلاقا من المنطق الشكلي وحده ، وانما من المنطق الديالكتي الماركسي أيضا . والمنطق الشكلي ، بعدم مواجهته الأشياء أو الأفكار المعنية بالأشياء الا حيث يمكن اعتبارها ثابتة ، يضيق بالى أبعد حد ، أفق المعرفة ، ولكنـــه يضيقه بمقدار ما تحتفظ هذه الأشياء ، أو الافكار المعنية بهـا ، بهوية نسبية ، مع ذاتها ، وفقا للقانون (ا هي ا)

أما الديالكتيك فهو ، خلافا لذلك ، يحطم ضيق المنطق الشكلي .

« فالديالكتيك بتحطيمه الافق الضيق للمنطق الشكلي ، يتضمن بذور نظرة أرحب الى العالم » (٢)

في حقل الرياضيات العليا ، يحتفظ جدول الضرب بأهميته ويستخدم بكل دقة كلما كانت ثمة علاقات ٢ × ٢ = ٤ (ذلك لأن الرياضيات العليا تعمل ، ليس فقط على أساس كميات متغيرة ، وانما أيضا ــ وهذا بدهي ــ على أساس كميات ثابتة). فالديالكتيك

---

(١) لينين ــ المؤلفات المختارة ــ المجلد الثاني ــ ص ٨٦٨ موسكو ١٩٤٧ .

(٢) ف . انجلس ــ ضد دوهرنغ ــ ص ١٦٥ ــ ١٦٦ .

مثل الرياضيات ، يفترض امكان وضرورة مراعاة قواعد المنطق الشكلي في كل مرة نكون فيها ازاء شروط تقتضي هذه المراعاة.

وهكذا يقوم الاختلاف بين المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي في واقع أنهما يواجهان الشيء الموضوع للدرس ، مواجهة مختلفة : انهما يتمايزان من ناحية أفق كل منهما ، بمقدار ما يحيطان به الشيء الموضوع للدرس ، من اتساع .

والحكم الواحد حسبما يعطى من تفسير، يمكن أن يدرس من قبل المنطق الشكلي ومن قبل المنطق الديالكتي معا .

فلنأخذ حكما ما ، بسيطا جدا ، يعتبره المنطق الشكلي بمثابة شيء مكتمل ، معطى ، وهو يحلله وفقا لتركيبه ، ويفككه الى أطرافه «الموضوع» والمقدمة والطرف الاوسط» وهو يدرس هذه الاطراف كلا على حدة ، وفي علاقتها الخارجية ، وبالتالي فهو يميز هذا الحكم تبعا لنوع المقدمة « prédicat » والموضوع والطرف الاوسط ، ويصنفه بين مختلف مراتب الاحكام تبعا للرواميز(١) - المستقل أحدها عن الآخر - وهي رواميز الصنف ، والكمية ، والعلاقة ، والكيفية .

أما المنطق الديالكتي فهو لا يواجه هذا الحكم كأنه شيء مكتمل ، بل بوصفه تعبيرا عن فكرة قادرة على أن تنمو وان « تتحرك » . وأيا ما كانت بساطة حكم ما ، ومهما بدا عاديا هذا

(١) رواميز - ج . راموز على وزن فاعول ، وضع العلايلي لكلمة « indice » (دار النشر) .

الحكم ، فهو يحتوي على بذور أو عناصر تناقضات ديالكتيـة تتحرك وتنمو ، داخل نطاقها ، المعرفة البشرية كلها . أشار لينين ، في عرضه للديالكتيك الى أنه ينبغي:

« البدء باية قضية كانت ، بابسط القضايا ، واكثرها عادية وشيوعا الخ ... اوراق الشجر خضراء ؛ ايفـان هو رجل ؛ « جوتشكا » هي كلبة الخ ... فحتى هنا ايضا ... ديالكتيك: فالخاص هو عام ... يعني أن الاضداد - والخاص هو ضد العام - هي متماثلة ... وحتى هنا ، أيضا ، ثمة مبـادىء اولية ، ثمة مفاهيم ضرورة ، ثمة صلة موضوعية للطبيعة الخ .. فالعرضي والضروري ، والظاهرة والجوهر ، موجودة هنـا ، فانا اذ أقول : ايفان هو رجل ، وجوتشكا هي كلبة ، وهـذه ورقة شجر الخ ... انما أنبذ سلسلة من الرواميز باعتبارهـا عرضية ، والفصل الجوهري عن السطحي ، واثبت التعـارض بينهما ؛ وهكذا في كل قضية - كما في كل خلية - نستطيع ان نكشف بذور جميع عناصر الديالكتيك . »(١)

ويترتب على هذا أنه في حين نرى المنطق الشكلي يشرح الى حد ما ، الحكم بمثابة شيء هامد ، لامتحـرك ، مكتمل ، يعتبر المنطق الديالكتي هذا الحكم نفسه متحركا ، ويعتبره درجة معينة من حركة نمو الفكر البشري ، يعتبره بمثابة « خليـة » تتضمن جميع عناصر الديالكتيك في حالتها الجنينية ، هـذه العناصر التي نستطيع والتي علينا تطويرها انطلاقا من حكم معين ، وذلك بفحص اكثر تعمقا .

---

(١) لينين - الدفاتر الفلسفية - ص ٣٢٩ .

وهذا بالضبط هو التعريف الخاص بالطريقتين ، الذي سبق لانجلس أن أعطاه . فهو التعريف الذي يبين الفرق بين المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي ، وينبه الى أن الاول لايقوم الا بصف أشكال الفكر آحدها الى جانب الآخر ، في حين أن الثاني **يطورها** منطلقا من الأدنى الى الاعلى.

وفي الحالة الاولى تظهر بين أشكال الفكر علاقة تناسق ، وفي الحالة الثانية ـ تظهر علاقة تبعية (وتنظيم). ويؤكدانجلس وجهة النظر التاريخية للمنطق الديالكتي بالتناقض الموجود بين مبدأ التطور (تبعية أشكال الفكر) ومبدأ تنسيق الاشكال المكتملة (مبدأ تناسقها) .

ويبين انجلس (منطلقامن كون كل معرفة واقعيةمكتملة، انما تقوم فقط في أننا ننتقل من المفرد الى الخاص ،ومن الخاص الى العام) أن الدرجات المتعاقبة لحركة نمو المعرفة تنعكس في الانتقالات المتعاقبة : من الحكم المفرد الى الحكم الخاص، ومن الحكم الخاص الى الحكم لعام . لقد سمح تصنيف الأحكام الأكثر عادية ، التي يعمل المنطق الشكلي على أساسها ، مثلا : الحكم « الوردة هي حمراء » « جميع الناس ميتون » الخ ... ان توزيعها الى زمر تجيء مطابقة لحالات المفرد ، والخاص ، والعام ، قد سمح لأنجلس باكتشاف الوشائج العضوية الموجودة بين مختلف أصناف الأحكام وعرضها من وجهة نظر نموالمعرفة البشرية . يوضح انجلس هذه القضية متخذا مثالا من تاريخ

اكتشاف تحول الطاقة . وثمة مثال يعادله في جودته يمكن أن يقدمه لنا اكتشاف مندلييف لقانون الدورية . يبين هذان المثالان أن المنطق الديالكتي هو : تعميم الانسان تعميما واقعيا لتاريخ الفكر والعلم ومعرفة العالم الموضوعي .

والفكرة القائلة بأن الحقيقة هي حركة تطور ، تجد تعبيرا عنها أيضا في قضية المنطق الديالكتي التي تؤكد أن المعرفة تذهب من الظاهرة الى الجوهر ومن الجوهر الأقل عمقا الى الجوهر الأعمق ؛ كأن المعرفة تتغلغل الى أعماق الاشياء ذاتها ، وتجتاز على هذا النحو ، سلسلة من الدرجات . ان السير الديالكتي للمعرفة هو ، في نظر لينين :

« حركة تعميق ، لا انتهاء لها ، يقوم بها الانسان لمعرفة الاشياء والظاهرات ، وحركات التطور الخ ... حركة للذهب من الظاهرة الى الجوهر ، ومن الجوهر الاقل عمقا الى الجوهر الاعمق . » (١)

ليس ثمة أي اطار يحدد المنطق الديالكتي في دراسة الأشياء ؛ ان هذا المنطق يجهد لدراسة الاشياء ، بكليتها الشاملة، وعمقها كله . كتب لينين معرفا متطلبات المنطق الديالكتي :

« لكي نعرف شيئا ، معرفة واقعية ، فيجب الاحاطة بجميع وجوهه ، ودراسة هذه الوجوه ، ومعرفتها بجميع ارتباطاتها وجميع « تعابيرها غير المباشرة »، ونحن لا نتوصل الى ذلك أبدا بصورة كاملة ، ولكن هذا المطلب الضروري يجنبنا الاخطاء واختبال الفكر . » (٢)

---

(١) المرجع ذاته — ص ١٩٣ .

(٢) لينين — المؤلفات الكاملة — المجلد الثاني والثلاثون ص ٧٢ .

وخلافا لذلك ، لا يأخذ المنطق الشكلي عادة الا ما يقع أولا وغالبا تحت الأعين ، وما هو على سطح الظاهرات نفسه . هنا يتوقف المنطق الشكلي ، وبهذا الحد يكتفي. انه لا يتخطى العلاقات الأكثر عادية ، وبساطة ، وشيوعا . انه لا ينفذ الى مضمون الشيء الموضوع للدرس ، ولا يكشف عن جوهره . وهذا ما يخلق الطابع الضروري للمنطق الشكلي .

يقول لينين :

« يتخذ المنطق الشكلي تعريفات شكلية ، مستنيرا بما يقفز الى الاعين عادة وفي الاغلب ، ثم يتوقف عند هذا الحد . » (١)

وتبعا لهذا ، فالفرق بين المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي يقوم في واقع أن الاول يتوقف تماما عند الدرجة الاولى من المعرفة ولا يذهب الى أبعد من ذلك ، في حين أن الثاني يتخطى سطح الاشياء .

ان الطريقة السطحية ، المحدودة ، للمنطق الشكلي، تعين طابعه المجرد الى أبعد حدود التجريد.هومجرد، لأنه يحيد عن نمو المعرفة ، عن تعقد الشيء الموضوع للدرس ،عن الشروط الملموسة التي تبرز فيها هذه القضية أو تلك. وهو يسمى منطقا شكليا لا لأنه يدرس اشكال الفكر (فالمنطق الديالكتي يدرسها أيضا) بل لان المنطق الشكلي يضع ويحل مسألة الحقيقة بصورة مجردة الى أبعد حدود التجريد . فهو بانحرافه عن المجرى التاريخي للمعرفة ، عن وجهة النظر التاريخية التي

---

(١) المرجع ذاته

تعتبر الحقيقة نفسها حركة نمو ، لا يأخذ بعين الاعتبار أن الشيء الموضوع للدرس لايستنفد . فالمنطق الشكلي يحيد عن مضمون الافكار ، وخصوصا عن حركة هذا المضمون ، عن نموه ، وعن الارتباطات العامة . وذلك ما يميز أيضا المنطق الشكلي من المنطق الديالكتي لأن :

« المنطق الديالكتي يعلمنا ان ليس ثمة حقيقة مجردة ؛ فحيز الحقيقة ملموس دائما وأبدا . » (١)

واخيرا فان لمسألة النشاط العملي ،بوصفه معيارا للحقيقة، بوصفه قوة محركة للمعرفة البشرية كلها ، أهمية ضخمة ،لكي ندرك ما هو موضوع الاختلاف بين المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي .

لقد سبق لماركس آن أكد في « موضوعته الثانية عن فورباخ » :

« ان مسالة معرفة ما اذا كان الفكر البشري يستطيع ان يؤدي الى حقيقة موضوعية ليست مسالة نظرية ، وانما هي مسالة عملية . ففي النشاط العملي نفسه يتحتم على الانسان أن يثبت نفوذ الحقيقة ، يعني أن يثبت واقعية فكره ،واقتداره ،أن يثبت نفوذ هذا الفكر . ان مناقشة واقعية الفكر أو عدم واقعيته بمعزل عن النشاط العملي ، هي مناقشة كلامية ، على وجه التخصيص . » (٢)

ولا شك في أن النشاط العملي يقوم بدور حاسم واحد في

---

(١) لينين المرجع ذاته .

(٢) انجلس « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفةالهجية الالمانية » الملحق – المنشورات الاجتماعية – ١٩٤٥ – ص ٤٥ .

المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي معا . ولينين، في بيانه الصلة بين مقولات المنطق ، بين المنطق البشري والنشاط العملـــي البشري ، يقول :

« لقد التزم النشاط العملي البشري أن يقود ذهن الانســان الى ترديد مختلف أشكال المنطق ، مليارات المرات ،حتىاستطاعت هذه الاشكال ان تكتسب قيمة البديهيات . » (١)

ثم يقول بعد ذلك :

« ان النشاط العملي البشري ، بتكراره مليارات المـــرات في ذهن الانسان ، يتثبت على شكل صور منطقية ! وهذه الصــور راسخة رسوخ التقاليد ، ولها طابع بديهي ، وذلك بالضبط ، بسبب هذا التكرار مليارات المرات ، وبسببه فقط .» (٢)

بيد أنالنشاط العملي ، وان كان يقوم بدور حاسمفيحقل المنطق الشكلي ،كما في كل موضع آخر،هو بعيد عن أنيندرج بكاملهفي المنطقالشكلي،فهو ليس فيهالا مصدرا لنشوءتصوراتنا الاولية ، على وجه التدقيق ، المعكوسة مثلا في البديهية المسماة القياس المنطقي :فليسالنشاط العملي فيالمنطقالشكلي الا المعيار المستخدم في التحقق من صحة هذه التصورات . وبتعبير آخــر نقول ان النشاط العملي يتدخل هنا بوصفه شيئا متميزا تماماعن المنطق الشكلي بوصفه نشاطا عمليا « للاستخدام العادي »،نظرا لأن المنطق الشكلي نفسه ينحصر في الحقل الضيق منالعلاقات الأوليــة .

وخلافا لذلك فالمنطق الديالكتي الماركسي ،بسبب طبيعته،

(١) لينين ـ الدفاتر الفلسفية ـ ص ١٦٤ .

(٢) المرجع ذاته ـ ص ١٨٨ .

وباستهدافه معرفة الشيء من جميع وجوهه ، على نحو تام ،غير محدود ، لا يتضمن شطرا واحدا من النشاط العملي البشري ، وانما يتضمن هذا النشاط العملي **بكامله**، ومن زاوية مقتضيات هذا النشاط العملي يدرس المنطق الديالكتي الأشياء .

وتبعا لهذا ، ووفقا للمنطق الديالكتي :

... « على النشاط العملي البشري كله أن يندرج في «التعريف» التام للاشياء ، سواء بوصفه معيارا للحقيقة ، أم بوصفه معينا عمليا لصلة الشيء بما يحتاجه الانسان (١) » .

هذا هو ، في خطوطه الأساسية ، الفرق بين الطريقتين في المنطق ، وهو الفرق القائم في الاساس ، بين المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي .

---

(١) لينين ـ المؤلفات ـ المجلد الثاني والثلاثون ـ ص ٧٢ .

هل الماركسية توفق بين الآراء المختلفة في المنطق

ان نصوص الماركسية اللينينية التي أوردناها آنفا تساعدنا على أن نميز في المنطق الشكلي ، والمنطق الديالكتي ، الرأي الذي يتفق مع الماركسية ، من الرأي الذي لا يتفق معها . ونبادر الى القول بأنها مناقضة للماركسية ، تلك التأكيدات العدمية التي تنفي الحاجة الى المنطق الشكلي ، وتقول بوجوب نبذه ، أو التي ترى على العكس أن المنطق الشكلي يستطيع أن يوجد وحده . فلا يكون ثمة منطق ديالكتي ، اذ لا يكون ثمة حاجة اليه . لقد أقر لينين ومثله أنجلس ، بضرورة المنطقين ؛ انهما يقران بأن المنطق الشكلي قابل للتطبيق ، بمعنى من المعاني (مثلا في حالة انتفاء تعارض منطقي ، يعني استحالة وجود مناقضات للشيء مع ذاته .) . فانجلس ولينين اذ يقران بضرورة المنطق الديالكتي ، يقدران — في آن واحد — أنه يؤلف جزءاً مكملا للماركسية ، وانه مرتبط ارتباطا لا ينفصم ، بديالكتيك الماركسية ونظريتها في المعرفة :

« الماركسية ، يعني المنطق الديالكتي ... » (١)

هكذا يؤكد لينين مبينا أن مقتضيات المنطق الديالكتي

(١) لينين — المؤلفات — المجلد الثاني والثلاثون — ص ٧٣ .

هي مقتضيات الماركسية . ان التأكيد القائل بأن ثمة منطقين يتوزعان ميدان المعرفة كله ، هو تأكيد مضاد للماركسية .ذلك لاننا لو تبنينا وجهة النظر هذه لوجب افتراض أن ميدان « الاستعمال العادي » ليس خاضعا للقوانين الديالكتية التي تصبح ، على هذا النحو ، مجردة من طابعها الشامل . لقد نبه لينين ، مثلما نبه انجلس ، الى أن المنطق الديالكتي ليس فقط ممكن التطبيق علىحقل الظاهرات المعقدة بصورة خاصة ،وانما على كل حقل من حقول المعرفة ، بما فيه أبسط العلاقات ، وأكثرها عادية وشيوعا ، وخصوصا تلك التي تؤلف حقل « الاستعمال العادي ».

واليك ما كتب لينين في موضوع كتاب « رأس المال » لماركس :

« يبدأ كارل ماركس بأبسط الاشياء ، واكثرها عادية ، وشيوعا ... انه يبدأ بالسلعة ... » (١)

ومن ثم يعمد ماركس الىتحليلها وبسط تناقضاتها .

وقد يخيلالينا أنه كلما كان الأمر متعلقابأبسطالظاهرات، وأكثرها عادية ، كان المجال مجال تطبيق المنطق الشكلي .بيد أن الديالكتيك الماركسي هو أيضا يفحص هذه الظاهرات . والفرق كله ينحصر في كون المنطق الشكلي ينهي فحصه حيث يبدأ المنطق الديالكتي في عرض حركة نمو الشيء الموضوع للدرس .

---

(١) لينين ــ الدفاتر الفلسفية ــ ص ٢١٥ ــ ٢١٦ .

يبحث المنطق الديالكتي ،في العلاقات أو الظاهرات الأكثر عادية وبساطة وشيوعا ، تطبيقا لوجهة نظر تاريخية ،عن البذرة، عـن جنين النمو المقبل . انه يعتبرها نقطة انطلاق اشكال للشيء الموضوع للدرس ، اكثر تعقيدا ، واكثر تطورا ، واكثر رقيا . ولهذا السبب ، يشمل المنطق الديالكتي حقل المعرفة ، كله في مجموعه ، بدون أي استثناء. في حين أن المنطق الشكلي لا يفصل من ميدان المعرفة كله الا جزءاً صغيرا نسبيا مكونا أبسـط العلاقات وأكثرها تخصيصا ، وهو ما يسميه انجلس « حقـل الاستعمال العادي ».

ان الجهود التي تبذل لتخصيص حقل الظاهرات بالمنطق الشكلي ، وحقل الجوهر بالمنطق الديالكتي هي ـ في الحالتين ـ مناقضة للماركسية . والواقع أن المنطق الديالكتي يحيط باسلوب معرفة الحقيقة ابتداء من الظاهرات المباشرة،انتقالا من الظاهرات الى الجوهر ، ومن الجوهر الاقل عمقا الى الجوهر الاعمق .

ان المعرفة ، حسب رأي لينين ، تكشف عن الجوهر ، في الظاهرات المباشرة :

« هذا هو ، في الواقع ، المجرى العام للمعرفة البشرية كلها (للعلم كله) بصورة عامة . » (١)

فكيف يمكن تقسيم هذا المجرى الديالكتي العام للمعرفة الى قسمين وارجاع احدهما الى المنطق الشكلي والآخر الى المنطق الديالكتي ؟

---

(١) المرجع ذاته . ص ٢١٤ .

وانطلاقا من هذا الواقع وهو أن المنطق الديالكتي يبسط فعله الى حقل الفكر كله ، الى حقل المعرفة ، وأن المنطق الشكلي يقتصر على قسم من هذا الحقل ، حيث يمكن اعتبار الاشياء أو الفكرة المعنية بالاشياء ساكنة نسبيا وثابتة ؛ اقترح بليخانوف الحل التالي لمسألة العلاقة بين المنطق الشكلي والديالكتي :

« كما أن السكون هو حالةخاصة من حالات الحركة كذلك الفكر وفقا لقواعد المنطق الشكلي (وفقا للقوانين الاساسية للفكر) هو حالة خاصة من حالات الفكر الديالكتي »(١) »

هذه القضية التي وضعها بليخانوف لم تنقد حتى الآن . ونحن نتصور ، لأول وهلة ، أنها متفقة مع الماركسية ، وذلك على وجه التدقيق، لانهما تؤكدان وجهة النظر التاريخية التي يفتقر اليها المنطق الشكلي (الذي يعمل على أساس مقولات ثابتة) هي من مميزات المنطق الديالكتي .وبليخانوف يؤكد ،في الوقت نفسه ، أن المنطق الديالكتي لايلغي استخدام المقولات ، الساكنة نسبيا ، في المنطق الشكلي،وانما هو يعترف بها بوصفها مطابقة للقوانين في بعض الحدود .

والواقع أن هذه القضية التي وضعها بليخانوف هي بعيدة كل البعد عن الماركسية . انها تحتوي ضمنا على التأكيد بأنه كما أن السكون يؤلف جزءاً من الحركة ، وهو حالة خاصةمن

---

(١) بليخانوف ــ المؤلفات ــ المجلد السابع عشر ــ ص ٢٦٥ (الطبعة الروسية) .

حالاتها ، كذلك المنطق الشكلي الذي يدرس الاشياء أو الافكار في سكونها ، يجب أن يكون جزءاً من المنطق الديالكتي الذي يدرس الاشياء وانعكاساتها في الفكر ، وهي في حالة نموها ، وحركتها ، وتغيرها . بيد أن المنطق الشكلي يدرس السكون ، لا كحالة خاصة من حالات الحركة ،يعني في ارتباطها بالحركة، وانما يدرسها تجريديا ، خارج الحركة . ان جميع طرائق المنطق الشكلي وقواعده وقوانينه تنزع الى التمكن من تجريد هنيهة السكون ، وفصلها عن التطور العام للفكر ، أو عن موضوع الفكر ، لحصر دراسة مسألة الحقيقة في الظاهرات السطحية (في « السطحيات » حسب تعبير انجلس) .

كيف نستطيع الاعلان بأن هذه الطرائق المستخدمة من قبل المنطق الشكلي **لتحديد الفكر** في اطار مقولات ساكنة (**اهي !**) هي حالة خاصة من حالات الفكر الديالكتي ؟ يقر المنطق الديالكتي ويتطلب الدقة في حل المسائل، ولكنه لا يتوصل الى ذلك بصرفه النظر عن تعقد هذه المسائل وتطورها (كما يفعل المنطق الشكلي) ولكن على العكس ، بأخذه بعين الاعتبار ، تعقدها وتطورها في حيز الملموس .

ويترتب على هذا اننا اذا أمكننا القول ، من وجهة ما ، أن دقة الجواب على السؤال الموضوع هي نتيجة « لسكون » معين، فان هذا يتم على نحوين مختلفين تماما في المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي : فالأول يعتبر هذا « السكون » معزولا عن الحركة ، منفصلا عن التطور العام للفكر ؛ والثاني على العكس ، يعتبره

بمثابة حالة من حالات الحركة ، وبمثابة نتيجة حصلت اثــر تطور الوعي باثر حركة الفكر . وواضح أننا لانستطيع بأيـة حال ، اعتبار الطريقة الاولى كحالة خاصة من حالات الطريقة الثانية . انهما طريقتان **مختلفتان** ومفهومان **مختلفان** لظاهرة واحدة ، لا غـير

وهكذا فالمنطق الشكلي والمنطق الديالكتي يعالجان ، على نحوين مختلفين ، حقلا واحدا من حقول المعرفة ، وهو حقــل سطح الظاهرات (ذو الاستعمال العادي) فالمنطق الاول يتناوله **بمعزل** عن سائر جوانب حقل المعرفة ويقتصر على هذا الحد؛ والثاني ، بخلاف ذلك ، يتناوله في ارتباطه مع الكل ، بوصفـه الدرجة الاولى من درجات معرفة الكل . وواضح هنا أيضا ،أننا لا نستطيع تصور طريقة المنطق الشكلي بمثابة حالة خاصة من الطريقة الديالكتية . ذلك لأن الطريقتين مختلفتان كليا:فالاولى تعلم بوجوب **عزل** الجزء عن الكــل ، وتناوله تجريديا ؛ والثانيـة تقضي بوجوب **ربط** الجزء بالكل ، وتناوله بصورة ملموسـة .

ومع أن المسألة في الحالتين تتعلق بالجزء نفسه من الكل فليس هذا سببا كافيا لكي نحول التصور المجرد للجزء ، كمـا يتصوره المنطق الشكلي ، الى حالة خاصة من حالات التصور الملموس للكل ، كما يتصوره الديالكتيك . فلن تكون هــذه الحالة الخاصة تصورا يقوم به المنطق الشكلي ، بــل تصورا ديالكتيا للجزء المندرج في الكل . مثلا ، في كتاب «**راس المال** »

لماركس ، ليست تعريفات السلعة حسب المنطق الشكلي هي التي تكون حالة خاصة ، وانما هي الدراسة (التي هي ديالكتية ، كما هي الحال في كتاب « رأس المال » كله) دراسة السلعة بوصفها « النواة » الاساسية للمجتمع البورجوازي بأسره ، بوصفها خليته.

ولا نستطيع أن نجعل من الدراسة المحدودة « السطحية » الوحيدة الجانب ، لشيء ما ، الحالة الخاصة لدراسة كاملة معمقة لهذا الشيء نفسه ، بحجة أن كل جانب من جوانب الشيء يكون جزءاً من مجموع جوانبه ! ان الطريقة التي لا تتناول الا جانبا واحدا ، ليست حالة خاصة من الطريقة التي تتناول جميع الجوانب ، ذلك لأن الدراسة المفصلة لمسألة ما ، لا تحتوي قط على الضيق والسطحية بوصفهما حالة خاصة .

ونستطيع أن نذكر مثالا أورده لينين ، قال :

« ليست أعضاء الجسم اعضاء للجسم الا بارتباطها . فالذراع المفصولة عن الجسم ليست ذراعا الا بالاسم (ارسطو) (١) . »

وكما اننا لا نستطيع القول عن ذراع مفصولة انها تؤلف جزءاً من جسم حي ، كذلك فحص حقل « الاستعمال العادي » ـ بصرف النظر عن الكل ـ يعني فحص سطح الظاهرات ، أو فحص هنيهة السكون ، بصرف النظر عن الحركة ، لايمكن أن يعتبر بمثابة حالة خاصة من فحص هذا الحقل في ارتباطه الملموس بالكل ، ولا بمثابة حالة خاصة من فحص السكون في ارتباطه بالحركة .

---

(١) ـ الدفاتر الفلسفية ـ ص ١٧٥ .

لا نستطيع اعتبار رأي صحيح ، كامل ، عن الاشياءبمثابة حاصل لآراء جزئية . ان حاصل وجهات النظر التي لاتتناول الا جانبا واحدا من المسائل لايؤدي الى فحص كامل للشيء ، وانما الى انتقائية فارغة من المضمون ، كما بين ذلك لينين بصورة رائعة في مؤلفه « مرة أخرى في موضوع النقابات » .

لقد استخدمت وجهة نظر بليخانوف الخاطئة أساسانظريا لمحاولات كثيرة لتذويب المنطق الشكلي والديالكتيك ،وخلطهما، ومزجهما ، ولكي يجعل من الاول حالة خاصة ، هنيهة ، جزءاً مكملا ، درجة ، عنصرا ، جانبا .. الخ من الديالكتيك .

ان تصور منطق « أوحد » ينطلق تماما من قضايـــــا بليخانوف ، هذه الغريبة عن الماركسية ، لهو خاطىء خطـــأ جوهريا .

أمثلة مستمدة من مؤلفات معلمي الماركسية اللينينية لتوضيح المنطق

ينبغي الاجابة عن سؤال كثيرا ما يطرح : هل من الملائم أن تستخدم في الكتب المدرسية وسواها عن **المنطق الشكلي** أمثلة مستمدة من مؤلفات معلمي الماركسية اللينينية ؟.

المهم هنا أن نعرف أية أمثلة ملموسة نعني . فبعض الامثلة ضرورية : وهي تلك التي تتعلق مباشرة بالمنطق الشكلي : والاخرى لا يمكن ايرادها : وهي تلك التي تخرج عن نطاق المنطق الشكلي ، وتدخل في نطاق الديالكتيك الماركسي . وكما يجب أن لا يخلط المنطق الشكلي بالديالكتيك ، كذلك يجب أن لانحاول توضيح قواعد المنطق الشكلي وطرائفه بأمثلة تميز طريقة الديالكتيك الماركسي الاكثر تعمقا .

ان الخلط بين المنطق الشكلي والديالكتيك أمر خطر، ذلك لانه يفسح مجالا لاحلال المنطق الشكلي محل الديالكتيك الماركسي ، وهذا يؤدي الى نزعة انتقائية حذر منها لينين مرارا.

فلنأخذ مثلا يبين الى أين نصل حين نخلط المنطق الشكلي بالديالكتيك :

المعروف أنه جاء زمن كان على الشعب السوفياتي أن يختار

فيه بين طريقي تطور متعارضتين كل التعارض : احداهما نحو الاشتراكية ، والاخرى نحو الرأسمالية .

كان ستالين يقول يومئذ :

« ليس أمامنا الا طريقان : اما الى الامام ، بارتقاء الشاطىء نحو النظام الجديد ، نظام الكولخوز ، واما الى الوراء ، بالانحدار عن الشاطىء ، نحو النظام القديم ، نظام الراسماليين والكولاك (١) . وليس ثمة أبدا طريق ثالثة (٢) » .

لماذا لم تكن توجد ، ولم يكن بالامكان أن توجد طريق أخرى ؟ ذلك لأن الاتجاهات المتعارضة المتجابهة كانت متصارعة، لايمكن التوفيق بينها ، ولان تناقضاتها ، يعني نضال هذه التناقضات فيما بينها ، لا يمكن أن يحل الا باحدى الطريقين اللتين أشار اليهما ستالين . والبحث على طريق ثالثة كانما معناه التخلي عن الديالكتيك الماركسي ،عن التعاليم الماركسية حول الطابع العدائي للطبقات التي لايمكن التوفيق بينها ،طابع صراع طبقي حاد ، لا بد منه .

وهكذا فصيغة ستالين : « اما هذه الطريق ، واما الطريق الاخرى ، وليس ثمة طريق ثالثة . » تعبر هذه الحقيقة الديالكتية العميقة ، وهي أن التغلب على التناقضات ،انما يكون بصراع بين الاضداد ، عنيف الى أبعد حدود العنف ، وأنه

(١) الكولاك: لفظة روسية كانت تطلق في عهد القيصرية على المزارعين الاغنياء .

(٢) ستالين ـ مسائل اللينينية ـ باريس ـ المنشورات الاجتماعية ـ ١٩٤٧ ـ ص ١٢٣

لايمكن تهدئته باكتشاف طريق ما ، من طرق التسوية .

ولكن صيغة « اما هذا ، واما الآخر ، وليس من طريق ثالثة » هذه الصيغة التي نجدها في الديالكتيك الماركسي ،تذكر، في مظهرها الخارجي ، بقانون «العكس » « tiers exclu » الذي يعمل على أساسه المنطق الشكلي . ولكن هاهم الذين يحبون خلط المنطق بالديالكتيك يستشهدون بأن الديالكتيك الماركسي باستطاعته اعطاء أمثلة يمكن أن تستخدم لتوضيح قانون « العكس » في المنطق الشكلي . ولكن هذا ليس صحيحا . ان قانون المنطق الشكلي ينطلق من هذه المقدمة المنطقية الاساسية بأن ليس ثمة تناقض ممكن القبول به بصورة عامة ،ذلك لأنه من بين قضيتين متضادتين يجب اختيار واحدة منهما (اما هذه ،واما تلك) فليس ثمة ولا يمكن أن يكون ثمة حل آخر من وجهة نظر المنطق الشكلي ،ذلك لأن كل حل آخر سوف يعني الاقرار بوجود تناقض . أما الديالكتيك الماركسي ، فهو ينطلق من القضية التالية : نجد أنفسنا أمام تناقض.أمام صراع بين تناقضات لا يمكن التوفيق بينها ؛ وعلى أحدها أن يتغلب . وفي هذا يكمن حل التناقض الموجود : اما هذا النقيض ، واما ذاك . اما التوفيق بين المتناقضات فمستحيل : ليس ثمة طريق ثالثة .

ينطلق الديالكتيك الماركسي ، كما رأينا ، في هذه الحالة، من **وجود تناقض** ويعتبر الصيغة « اما هذا ، واما ذاك» وسيلة لحل التناقض الموجود ، أما المنطق الشكلي فهو ينطلق من

نفي التناقض ويعتبر صيغة « اما هذا ، واما ذاك» وسيلة لاجتناب التناقض أو طمسه . لهذا السبب ، ورغم تشابه سطحي في الصيغ ، لا يمكن لقضايا الديالكتيك الماركسي ، بأية حال ، أن تستخدم أمثلة لتوضيح قوانين المنطق الشكلي ؛ وخلط المنطق الشكلي بالديالكتيك لا يمكن أن يؤدي الا الى خفض شأن الماركسية .

ويمكن أن نقول الشيء نفسه بخصوص أمثلة مستمدة من مؤلفات معلمي الماركسية ـ اللينينية . مثلا : التعريف اللينيني للاستعمار ، أو التعريف الستاليني للامة . فليس ثمة أدنى ريب في أن هذين التعريفين يراعيان مراعاة تامة جميع المقتضيات التي يفرضها المنطق الشكلي على التعريفات . ولكن طبيعة هذين التعريفين اللينينيين الستالينيين لاتكمن في كونهما يلبيان مقتضيات المنطق الشكلي ، وانما في كونهما يذهبان الى أبعد من هذه المقتضيات ، مكتشفين في الاشياء المعينة ما هو جوهري من وجهة النظر الماركسية . ماذا يحدث لمدرس من مدرسي المنطق ، اذا اختار في مؤلفات معلمي الماركسية ـ اللينينية ، أمثلة من هذا النوع لا لشيء الا ليبين أن قواعد المنطق الشكلي مرعية فيها ؟ سوف يكتفي تلامذته بأن يتخذوا من قضايا الديالكتيك الماركسي نماذج للمنطق الشكلي . ولسوف يؤدي هذا الى جعل الماركسية تافهة ، عادمة الاهمية . حين نختار أمثلة لقضايا المنطق الشكلي ، يجب أن لاننسى مطلقا كيف كان لينين يميز أبنية المنطق الشكلي : بوصفها أكثر علاقات الاشياء

عادية ، وسطحية ، يلوكها الكلام على نحو مدرسي . فمن الحمق المضحك أن نختار في مؤلفات الرياضيات العليا أمثلة عن عمليات الحساب الاربع ، أو امتداح أصحاب هذه المؤلفات لأنهم يعرفون جدول الضرب . هذا مديح يناسب التلامذة . فجميع الذين ترددوا على المدارس ، عليهم أن يعرفوا جدول الضرب ومبادىء الجغرافيا .وعليهم أن يعرفوا الكتابة بلا اخطاء في الاملاء ، وان يعرفوا ويطبقوا أبسط مبادىء التفكير المنطقي . لهذا كانمن غير الجدي أن نعتبر تعريفات ديالكتية علمية على نحو عميق ، غير مهتمين الا بمعرفة ما اذا كانت أبسط قواعد المنطق مرعية فيها ، بدلا من الاهتمام بمضمونها العلمي حقا .

وغني عن القول أن لينين وستالين اللذين يستخدمان بصورة فنية بارعة ، الطريقة الديالكتية الماركسية ، لايخرقان، في أي موضع من مؤلفاتهما ، قواعدالمنطق الشكلي . ولكن دراسة مؤلفاتهما من هذه الزاوية وحدها ، يعني الخفض من أهميتها ، ويعني جعل الماركسية تافهة مبتذلة .

وتجدر الملاحظة ، في هذا الصدد ، بأن اساتذة المنطق يخطئون كل الخطأ اذ يفسرون قوة منطق لينين ، التي لاتقاوم في خطبه ، حين يرون هذه القوة محصورة في مراعاة قواعد المنطق الشكلي .

ولكن يجب أن لانتحدث في هذه الحالة عن قوة المنطق ، وانما فقط عن عدم وجود اخطاء في المنطق . ومع أن هذا أمر

مفروغ منه حين يتعلق الامر بقوة المنطق ، لكنه ليس كافيا ليضمن وحدة قوة المنطق هذه . وواضح أن قوة المنطق ، في خطب لينين ، تفسر بالتطبيق الصارم ، والمنسجم مع نفسه ، للديالكتيك الماركسي .

ان مؤلفات معلمي الماركسية ـ اللينينية تتضمن نماذج رائعة من فضح أعداء الماركسية ونقدهم ، أولئك الذين خرقوا أبسط مقتضيات المنطق . وماركس ، وانجلس ، ولينين ، وستالين ، يفضحون في مناسبات كثيرة ، الاختلال المنطقي ، والتناقضات ، والابهام ، وفقدان الارتباط ، وعدم الدقة ، في التعابير ، والتشويش ، واستخدام مفهوم في موضع مفهوم آخر ، ومجاوزات أخرى كثيرة للمنطق الشكلي ـ يعني خرق أبجدية المنطق التي يدرسها الطلاب في المدارس ـ تلك التي يرتكبها خصومهم الايديولوجيون والسياسيون من برودون الى دوهرنغ ومن الشعبيين والفوضويين الى المناشفة والتروتسكيين وسائر أعداء الماركسية . يجب قطعا استخدام نماذج النقد الماركسي اللينيني في كتب المنطق الشكلي المدرسية في مؤسسات التعليم العالي . ذلك لأنها تتعلق ، على وجه التخصيص بهذا المنطق ، وتبين الحد الذي لايسمح عنده بخرق قواعده وقوانينه ، وهل ثمة ما هو أكثر اقناعا من بيان أن السياسي أو الايديولوجي البورجوازي أو البورجوازي الصغير ، المنشفي أو الفوضوي ، الذي يظن كل واحد منهم نفسه مفكرا كبيرا ، لا يراعي المنطق ،

لا يراعي القواعد الأولية للفكر ؟ وأية قيمة يمكن أن تكون لأبحاثه الفلسفية أو الاجتماعية ، اذا لم يكن يعرف أو لم يكن يريد معرفة الحقائق التي تتعلمها في المدرسة ؟ ان « المفكر » أو السياسي من هذا الطراز يشبه الانسان الذي يتصور نفسه عالما رياضيا عظيما في حين أنه يجهل جدول الضرب ، أو الرجل الذي يتصور نفسه كاتبا كبيرا في حين أنه يجهل قواعد الاملاء ان انجلس ينزل دوهرنغ عن مرتبته ، ويهزأ به ، مبينا على وجه التحديد ، أن دوهرنغ يخرق باستمرار مبادىء المنطق الاولية . ويسخر ستالين من الفوضويين الجورجيين الذين ارتكبوا ـ وهم يتلبسون هيئة العلماء ـ أخطاء منطقية صارخة ، والذين ناقضوا أنفسهم بأنفسهم.

وكذلك تقدم مؤلفات معلمي الماركسية مجموعة غنية من الوثائق توضح كيف ينقد ماركس ، وانجلس ، ولينين ، وستالين احلال مخططات موجزة سطحية للمنطق الشكلي محل التحليل العلمي الماركسي .وهم يبينون في الوقت نفسه ضيق المنطق الشكلي ، وعدم كفايته .

لقد بين لينين ، في نقده لموقف المناشفة المناهض للماركسية ، في الثورة الروسية ، جهودهم ليستبدلوا بالماركسية مخططات موجزة من المنطق الشكلي . لقد كان المناشفة يفكرون على هذا النحو :

« نعم هي نعم ، ولا هي لا . وليس الباقي الا خدعة ! اما البورجوازية واما الثورة الاشتراكية . اما ما خلا ذلك ،

لمستطيع « استنتاجه » من الحل الاساسي بواسطة قياسات منطقية بسيطة ٠ » (١)

كان لينين يقول عن هذا الاسلوب من أساليب التفكير انه لا شيء مشترك بينه وبين الماركسية .

ويستطاع استخدام أمثلة من هذا النوع ثمينة الى أبعد حد ، في مؤسسات التعليم العالي لبيان ضيق المنطق الشكلي وعدم كفايته لدراسة الظاهرات التي تتطلب (بسبب طابعها المتناقض الداخلي ، وقابليتها للتغير) ، استخدام المنطق الديالكتي .

وما أكثر الامثلة الحية التي تقدمها لنا الحياة العالمية اليوم! ويستطاع ، في كتاب مدرسي عن المنطق ، ذكر حالات كثيرة فضح فيها المندوبون السوفياتيون الدبلوماسيين الاميركيين وأذنابهم حين خرقهم قواعد المنطق ، وحين كانوا يبدلون في المفاهيم ، وينأون عن الحلول الواضحة المحددة ، عن التعريفات الدقيقة ، ويناقضون انفسهم بأنفسهم بخرقهم بفظاظة التزاماتهم المتخذة سابقا ، وكانوا يحولون تحويلا سفسطائيا المفاهيم الى أضدادها ، (مثلا : يجعلون من المعتدي مناضلا في سبيل السلم والعدالة ، ومن ضحية الاعتداء معتديا الخ .. الخ ..

(١) لينين ـ المؤلفات ـ المجلد ١١ ـ ص ٢٧٢ ٠

حول تصحيح مهم جداً للمنطق الشكلي

يرى بعض الرفاق من كلمات انجلس التي أوردناها، لا تتعلق بالمنطق الشكلي الحالي ، نظرا لأن انجلس لم يكن يعطيه المعنى نفسه الذي نعطيه له اليوم ، وأنه لم يكن يرى فيه الا منطقا شكليا مؤولا تأويلا غيبيا ، يعني — اذن — أن طبيعته مغيرة ؛ أو أنه ما كان يرى فيه الا مذهبا غيبيا وحسب .

والواقع أن انجلس يستعمل غالبا ، بالمعنى نفسه ،تعبيري الميتافيزيك (الغيبية) ، والمنطق الشكلي ؛ ويفسر هذا ، كما يبدو لنا ، بواقع أن هذا وذاك يعملان على أساس مقولات جامدة ؛ زد على ذلك أنه جاء زمن قام فيه المنطق الشكلي بدور الأساس المنطقي لوجهة النظر الغيبية عن الطبيعة . وهكذا فانجلس عند حديثه عن الهوية المجردة (**ا هي ا**) التي كانت دائما القضية الاساسية للمنطق الشكلي (**قبل تصحيحه ،وبعده**) يعالج هذه الهوية المجردة للمقولة الغيبية ، التي لاتلائم الا حقلا معينا من حقول المعرفة . ولكن بين المنطق الشكلي والغيبية ثمة

معنيا من حقول المعرفة . ولكن بين المنطق الشكلي والغيبية ثمة

فرقا جوهريا: ان المنطق الشكلي **يعمد الى التجريد** ،انه يحتفظ من العلاقات الواقعية بين الاشياء أو مقولات الفكر التي تعكسها، بفترة من الهوية ، فترة من الاستقرار النسبي ، ويعتبر هذه

الفترة بصورة تجريدية ضاربا صفحا عن التفاوت القائم باتحاد مع الهوية ، وضاربا صفحا عن التغاير ، عن السيلان القائم باتحاد مع الاستقرار .

وهكذا يكون استعمال المنطق الشكلي مبررا تبريرا كاملا بمقدار ما يكون مقبولا ، أوبتعبير أفضل ، بمقدار ما يكون ضروريا أن يقتصر اعتبارنا على هنيهة من استقرار الشيء أو الفكرة المعنية بالشيء ، بصرف النظر عن تغيره ،عن سيلانه . لهذا السبب نتحدث ، في المنطق الشكلي ، عن هوية مجردة وليس عن الهوية في حيز الملموس ، الموجودة في الواقع نفسه ، التي يعالجها المنطق الديالكتي .

وانما في صدد هذا تطرح مسألة الطابع «الاونتولوجي»(١) أو بتعبير أدق ،الطابع الموضوعي لقوانين المنطق الشكلي .يؤكد بعض المناطقة أن الفرق الاساسي بين المنطق الديالكتي والمنطق الشكلي ينحصر في أن الاول هو الانعكاس المطابق للواقع ، مع ارتباطاته العامة ونموه ، وتناقضاته ، في حين أن الثاني ليس له بصورة عامة نموذج أصلي في الواقع المادي ، ذلك لأنه لايوجد في الطبيعة ، ولا في المجتمع ، أشياء أو علاقات تكون دائما مماثلة لذاتها (ا هي ا) وتكون معفاة من التناقضات الخ ... يقول هؤلاء المناطقة : ان المنطق الشكلي هو علم القوانين الاساسية للفكر ،والفكر – في زعمهم – بخلاف الطبيعة والمجتمع

(١) اونتولوجيا – : علم الكائنات .

اللذين يعكسهما الديالكتيك ، انما يتميز بسكونه ،وخلوأشكاله من التناقضات . وهكذا نصل الى القول بأنه ليس يوجد فقط أي تطابق بين قوانين العالم الموضوعي وقوانين الفكر ، بل ان ثمة ، على العكس ، انقطاعا شديدا فيما بينها ؛ ولا يمكن أن يؤدي هذا الا الى ما زعمه « كانت » من انفصال بين الذات والموضوع ، وبالتالي الى اللاادرية والى المثالية .

ويكمن الخطأ هنا في جهل واقع هو أن الاستقرار النسبي للاشياء وصورها الذهنية ، يستخدم قاعـــدة موضوعيــــة « اونتولوجية » للمنطق الشكلي وقوانينه .

ان دوام الافكار ، المصوغ قانونا للهوية المجردة (ا هي ا) ليس الا الصورة المجردة لجوانب مستقرة نسبيا ـ لأشيــاء وارتباطات بين أشياء ، في الواقع نفسه .

بين المنطق الشكلي والمذهب الغيبي ثمة صلة محددة ، وهذا ما أعطى الاساس لانجلس للكلام عن امكان تطبيق الغيبية (بمعنى المنطق الشكلي) في حقل «الاستعمال العادي ».والمنطق الشكلي، كالغيبية ، ينطلق من الهوية المجردة للاشيــاء ، أو الافكار المعنية بالاشياء ، مستخدمة لذلك جميع قوانين المنطـق الشكلي وطرائقه . وفي الوقت الذي تجرد فيه الغيبية فتـرة الاستقرار ، يعني فترة الدوام ، فترة سكون الشيء وجموده ، ولا حركيته ، في هذا الوقت نفسه تجعل من هذه الفترة شيئـا مطلقا ، نافية نفيا باتا سيلان الشيء ، وتغيره ، وحركته،وتطوره. وتبعا لهذا فالغيبية تحول الهوية المجردة ، التي يستمدها المنطق

الشكلي من الواقع ، الى تصـور خيالي ، الـى هوية مطلقة وبالتالي ، فالمنطق الشكلي يضرب صفحا عن التباينات القائمـة « ضمن الهوية » كما يعبر انجلس.أما الغيبية فهي تنفي الوحدة بين الهوية والتباين . فالاول يتجاهل التغير ، والثانية تنفيـه . فالسكون في نظر الاول انما هو نسبي ، وان كان لايعتبره بمثابة حالة خاصة من حالات الحركة ، نظرا لأنه يتجاهل التطور ،أما الغيبية فتعتبر السكون مطلقا لأنها تنكر الحركة .

وبايجاز نقول ان الغيبية تنفي مـا يكتفي المنطـق الشكلي بتجاهله . ان المنطق الشكلي القديم الذي حدد المفهوم الغيبي للعالم ، لم يكن يفرق بين التجريد والنفي ؟ فبالقيـاس اليه كانت الهوية المجردة تعني ذات ما تعنيه الهويـة المطلقة ـ بالمعنى الغيبي . وحين تعمد الغيبية ، الى اطلاقه ،تجعله محالا ، وتبطل في الوقت نفسه فكرة ضرورته . كتب لينين في مؤلفه : « مرض الطفولة ، أواليسارية في الشيوعية .»

« ان أضمن وسيلة لحمل الناس على نزع ثقتهم من فكرة سياسية جديدة (وليس فقط من فكرة سياسية) وللاساءة اليها ، هي المدافعة عنها بدفعها الى حد المحال ، والواقع ان كل حقيقـة ، اذا جعلناها « مفرطة » (كما كان يقول « ديانزجن الاب » ، اذا بولغ فيها ، اذا مددت الى ماوراء حدود تطبيقها الواقعي ، يمكن أن تدفع الى المحال ، بل انهـا تتحول حتما الى شـيء « محال . » (١)

(١) لينين ـ المؤلفات المختارة ـ موسكو ١٩٤٧ ـ المجلد الثاني ـ ص ٧٣٠ .

وانها حقا ، لخدمة من نوع الخدمات القاتلة ... التي يقدمها الغيبيون للمنطق الشكلي بمحاولتهم تعميمه ،ومحاولتهم أن يجعلوا منه منطقا وحيدا يفسر جميع حركات تطور الفكر ، وان يستنفد بوساطة قوانينه الاربعة ، الضيقة الناقصة الى أبعد حد ، كل مايسير الفكر وأشكاله .

ولهذا فتحرير المنطق الشكلي من الغيبية يؤلف أحد التصحيحات المهمة التي أحدثت للمنطق الشكلي القديم ، تلك التصحيحات التي تحدث عنها لينين في مؤلفاته. وعلى التلميذ الذي يدرس المنطق الشكلي أن يتجنب المبالغة في قواعدها ،أن يتجنب تضخيم هذه القواعد : ان عليه ان يفسرها فقط بمثابة أسلوب من اساليب تجريد التغير ، حين يتعلق الامر بشيء أو بتصوره الذهني ، بوصفه شيئا مستقرا نسبيا ثابتا ، ضمن بعض الحدود.

ان تأكيد انجلس ، الذي نستطيع أن نستخدم تبعا له وضمن بعض الحدود المذهب الغيبي ، بحاجة الى التدقيق ،أو بتعبير أصح بحاجة الى التحليل: نستطيع استخدام **المنطق الشكلي** بل علينا استخدامه ، ذلك لأنه يكون ، اذا فهم حق الفهم ، شطرا من الحقيقة ، وان كان شطرا بسيطا جدا ، ولكن ليست هذه أبدا هي حالة الغيبية التي تحول هذا الشطر من الحقيقة الى خطأ.

أما الغيبية فلا ينبغي استخدامها ابدا ، بأي شرط كان .

ان انجلس الذي كان يعتبر أن للمنطق الشكلي وللغيبية أساسا منطقيا مشتركا ، لم يقم بهذا التمييز ، وذلك قد يفسح مجالا لبعض الاوهام .

ضد النزعة الذاتية في المنطق

علينا اذا أردنا أن نستخدم المنطق استخداما واعيا ، اثبات الهوية حيث تكون قائمة في الواقع ، والاحتفاظ بها ما دامت قائمة خلال التغير ونمو الاشياء أو الفكرة المعنية بالاشياء .

وحين تستخدم الهوية المجردة المثبتة التي يكونها المنطق الشكلي استخداما صحيحا ، تطابق الواقع الموضوعي ، أما كون الغيبية ترفع هذه الهوية المجردة الى صعيد المطلق ، يعني أنها نمددها الى جميع حقول المعرفة بدون استثناء ، حتى الى تلك التي يستحيل تطبيقها عليها ، على نحو خاص ، فلا يطابق الواقع مطلقا بل هو نتيجة تفسير اعتباطي ذاتي بحت لقوانين المنطق الشكلي . ان النزعة الذاتية ، والتعصب الذاتي ، يؤلفان الاساس المعرفي للغيبية ، بخلاف المنطق الشكلي الذي عليه ، اذا طبق تطبيقا صالحا ، أن يتخلى عن الاعتباطية والذاتية . قال انجلس متحدثا عن الطابع الغيبي المحدود للعلوم الطبيعية في ذلك العهد ، الذي كان يفرض عليها « خطوطا فاصلة » واختلافات في المراتب مثبتة تثبيتا جامدا :

« ان ما كان يعزى اليها من تحديدات مثبتة وقيمة مطلقتين، لم يدخلهما في الطبيعة الا تصورنا الذاتي . » (١)

---

(١) انجلس ـ انتي دوهرنغ ـ باريس ـ المنشورات الاجتماعية ـ ١٥٩٠ ص ٤٣ .

والتشويه الغيبي للمنطق الشكلي انما يظهر حين يبدأ الناس الذين ينطلقون من اعتبارات ذاتية محض ، والذين يجهلون الحقيقة الموضوعية ، أن يفرضوا ذهنيا على الطبيعة ، أو على المجتمع ، أو على الفكر ، بصفة رواميز مطلقة ، ماليس صحيحا الا في الحدود الضيقة لحقل « الاستعمال العادي » .

والفكر الذي يتبع قواعد المنطق وحسب ، ذلك المنطق المسمى أيضا « حسا سليما » اذا خرج من بين الجدران الاربعة ، جدران « الاستعمال العادي » ، فهذا يعني محاولته الاحاطة ، بصورة اعتباطية ، ذاتية ـ بواسطة هذه القواعد التي لا تطابق ـ بظاهرات لا يمكن أن تعكس عكسا صحيحا الا بالديالكتيك .

* * *

ولكن قد توجد ثمة نزعة ذاتية ليس فقط حينما نعمل على أساس المنطق الشكلي بمقولاته الساكنة ، الجامدة ، وانما أيضا حينما نعمل بواسطة مقولات مرنة متحولة ، ففي الحالة الاولى نصل الى الغيبية ، وفي الثانية نصل الى المذهب النسبي ، والسفسطائية ، والانتقائية . كتب لينين مبينا خصائص الفكر الديالكتي :

« ان المرونة التامة الشاملة للمفاهيم ، وهي المرونة التي تذهب الى حد تماثل الاضداد ، ذلك هو جوهر القضية . ان هذه المرونة اذا استخدمت على نحو ذاتي تفضي الى : الانتقائية والسفسطة ؛ والمرونة المستخدمة موضوعيا ، يعني بكونها تعكس

جميع جوانب حركة التطور المادية ووحدتها، انما هي الديالكتيك، وهي الانعكاس الصحيح للتطور الابدي للعالم . » (١)

وهو يوضح هكذا هذا التباين :

« ان المطلق ، في نظر الديالكتيك الموضوعي ، هو في النسبي . أما في نظر الذاتية ، والسفسطة ، فالنسبي ليس الا نسبيا . وهو يستبعد المطلق . »(٢)

وفي موضع آخر أشار لينين :

« نستطيع بانطلاقنا من المذهب النسبي البحت ، تبرير كل نوع من أنواع السفسطة والاقرار مثلا في نطاق « النسبي » بأن نابليون توفي في الخامس من نوار عام ١٨٢١ ، أو لم يتوفه .» (٣)

يقتضي المنطق الديالكتي الماركسي أن يطابق انعكاس العالم الموضوعي في ضمير الانسان الشيء المنعكس، وأن لا يتضمن شيئا غريبا عنه ، شيئا جيء به على نحو ذاتي. ان التفسير الذاتي، وفقا لوجهة النظر النسبية المرونة المفاهيم ، هو اضافة غريبة ، تماما كالمبالغة الغيبية الذاتية في تجريدات المنطق الشكلي .

ويجب في هذا الصدد ذكر التأكيد الخاطىء الذي يقول بأن التدقيق هو من المقتضيات المميزة للمنطق الشكلي ، خلافا للديالكتيك ، وأن ذلك يكون بالتالي امتيازا للمنطق الشكلي ،

---

(١) لينين ـ الدفاتر الفلسفية ـ ص٨٤ .

(٢) المرجع ذاته ـ ص ٣٢٨ .

(٣) لينين ـ المادة ومذهب النقد التجريبي .

ومن ثم يستنتج : اذا كانت الفكرة دقيقة ، فهذا يعني أن لها طابع المنطق الشكلي . هذا الاستنتاج خاطىء كل الخطأ .

ان الديالكتيك لا يمكن ارجاعه بأية حال ، الى النزعة النسبية ، وان كانت تدخل فيه فترة من النسبي . ولكنه ليس أقل من المنطق الشكلي تطلبا للدقة في الفكر ، وهو لا يرضى بأجوبة غائمة مبهمة ، غير دقيقة ، على أسئلة موضوعة وضعا حسنا .

فالديالكتيك لا يقر مثلا بأن يجاب على السؤال: « كيف تسير ، في لحظة معينة ، الحركة الثورية لبلاد معينة : أنحو نهوض أو نحو هبوط ؟ » لايقر بأن يجاب على هذا السؤال : نحو النهوض ، ونحو الهبوط معا . ذلك لأنه ليس ثمةفي الواقع حركات من هذا النوع في الحياة الاجتماعية.ان جوابا كهذا لهو سفسطة نموذجية ، ذلك لأن مرونة المفاهيم مطبقة هنا علىنحو ذاتي لا وفقا للواقع الموضوعي . كتب ستالين في موضوع تطور ثورة سنة ١٩٠٥ :

« هنا مواقف التردد غير مقبولة : فاما ان تكو ن الثورة سائرة نحو نهوض ، وعلينا المضي فيها حتى النهاية ، واما ان تكون سائرة نحو هبوط ، وعندئذ لا نستطيع ، بل لا ينبغي لنا أن نضع نصب اعيننا هذا الهدف (يعني الثورة) ٠وعبثا يفكر « روديانكو » بان وضع السؤال على هذا النحو هو غير ديالكتي ٠ ان روديانكو يبحث عن خط وسط ، اذ يريد

القول بأن الثورة تتصاعد ولا تتصاعد ، وأنه يجب المضي فيها الى النهاية ، ولا يجب ؛ ذلك لان الديالكتيك ـ كما يرى ـ يرغمنا بالضبط على وضع السؤال هكذا؛ اننا لا نفهم ديالكتيك ماركس على هذا النحو . » (١)

وهكذا فليس ثمة ديالكتيك يعفينا من اعطاء جواب صارم الدقة ، غير ملتبس ، على سؤال ملموس . واذا كان السؤال موضوعا وضعا حسنا ، بصورة ملموسة ، فالديالكتيك بالضبط، ـ وهو الذي يقر بأن الحقيقة ملموسة ـ هو الذي يستطيع دائما أن يعطي جوابا دقيقا ، لا المنطق الشكلي الذي قد يورط أحيانا الفكر في مأزق بسبب طابعه المجرد ، اذا توقفنا عند حدود مقتضياته الشكلية بدلا من أن نأخذ بعين الاعتبار مقتضيات المنطق الديالكتي .

لايستخدم المنطق الشكلي ، ولا يمكن أن يستخدم أداة للعدو الطبقي ، انه ملك الانسانية بأسرها . أما المنطق الديالكتي فهو يؤلف جزءاً لايتجزأ من المادية الديالكتية ، من مفهوم العالم للحزب البلشفي .

بيد أن مقولات المنطق الشكلي الجامدة المستخدمة استخداما خاطئا ، اعتباطيا ، ذاتيا ، هذه المقولات المحولة الى مذهب غيبي، وكذلك مرونة المفاهيم المستخدمة ذاتيا ، والمحولة الى سفسطة،

---

(١) ستالين ـ المؤلفات ـ موسكو ـ المجلد الاول ، ص ٢٣٩ .

تستطيع أن تخدم ، وهي تخدم كأداة للعدو الطبقي .

ذلك كما كان يقول لينين ، أن كل قسم من المنحى المعقد ، لمعرفة الانسان ، يمكن أن يحول بصورة اعتباطية ووحيـــدة الجانب ، الى خط مستقيم مستقل ، يؤدي دائما (اذا لم نـــر الغابة خلف الاشجار) ، الى المستنقع حيث تحتفظ به دائمـا المصلحة الطبقية للطبقات المستثمرة .

خاتمة عملية

ان المناقشة حول منطق « وحيد » (مختلط) وحـول منطقين مستقلين، لهي مناقشة مصطنعة كلامية من حيث مضمونها، وهي أبعد الاشياء عن المساعدة في تعليم المنطق ، ولا يؤدي الا الى تشويش مسألة بسيطة واضحة ، حلتها الماركسية منـذ عهد طويل .

والذي ينبغي هو ... تصفية هذا التشويش ... ان المفهوم التبسيطي لمنطق « وحيد » (مختلط) هو العقبة الاساسية التي تعترض هذه التصفية ، ولهذا فأهم واجب للمناطقـة السوفياتيين يكمن في محاربة هذا المفهوم غير الماركسي .

ولا ننسى أن المنطق الشكلي لايؤلف جزءاً لايتجزأ ولا « هنيهة » ، ولا جانبا ، ولا حالة خاصة من المنطق الديالكتي ، يعني من الماركسية ، تماما كما أن اعتبار جانب واحد من جوانب الاشياء ليس حالة خاصة من اعتبار الاشياء من كل جهاتها ، تماما كما أن رأيا سطحيا ليس « هنيهة » مـن رأي جوهري . ان الاقرار بعكس هذا يؤدي حتما الى الانتقائية .

ان المنطق الشكلي هو شرط ضمني للفكر الديالكتي ،

لا لأن له أهمية أعظم من الديالكتيك ، ولكن فقط لأن ليس ثمة أي ديالكتيك يستطيع أن يولد وأن يتماسك في ذهن مشوش يخرق أبسط قواعد التفكير المنطقي ، ويقر التناقض ، وانعدام الوضوح ، وفقدان الترابط بين الافكار .

فمعرفة قواعد المنطق الشكلي ومراعاتها الصارمة في الحياة اليومية هي الراموز الضروري للتعليم الابتدائي .

كيدروف